

الفصل الثاني الهجرة إلى المدينة

• المبحث الأول: أسبابها:

• أولاً: الابتلاء والاضطهاد:

منذ أن أعلن الرسول ﷺ الدعوة ظل يتعرض لشتى أنواع المضايقات، هو ومن أسلم. وقد ذكرنا ذلك في المباحث السابقة، ولذا كان رسول الله ﷺ يفكر دائماً في طلب الحماية خارج مكة، عندما استعصت عليه مكة. فكانت هجرة الحبشة وهجرة الطائف، وأخيراً هجرة المدينة.

ومما يؤكد أن الابتلاء والاضطهاد كانا سبباً من أسباب الهجرة إلى المدينة قول بلال رضي الله عنه عندما هاجر: «... اللهم العن شيبه بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميه بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء...» [البخاري].

وقول عائشة رضي الله عنها في سبب هجرة أبيها إلى المدينة: «استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى...» [البخاري].

وكان ذلك هو السبب نفسه في محاولته الهجرة إلى الحبشة من قبل هو وسائر المسلمين كما قالت عائشة رضي الله عنها: «... فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة...» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن من أسباب الهجرة تعذيب المسلمين.

ثانياً: وجود حماية للدعوة تمكنها من السير في طريقها:

يفهم ذلك من نصوص بيعة العقبة الثانية كما رواها الإمام أحمد عن جابر، وكما رواها غيره، وفي حديث ابن إسحاق.

ثالثاً: التكذيب والإخراج:

تكذيب كبار زعماء قريش ومعظم عامتهم الرسول ﷺ فأجبروه أن يفكر في قوم آخرين يصدقونه، كما رأينا. وقد عبر سعد بن معاذ عن هذا المعنى في قوله: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه». وفي رواية: «... من قوم كذبوا نبيك وأخرجوه من قريش» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] من بين ما ذكر من أسباب، أن تكذيب قريش الرسول ﷺ كان من أسباب الهجرة.

رابعاً: مخافة الفتنة في الدين:

وذلك واضح من قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن الهجرة: «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه...» [البخاري].

ومن قول ابن إسحاق [في السيرة]: (وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم...).

خامساً: الإذن للمسلمين بالقتال:

ذكر ذلك ابن إسحاق [في السيرة] وقال إن الآيات ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ [الحج: ٣٩] هي أول آيات أنزلت في إذنه له بالحرب لمن بغى عليهم.

وتابع في هذا ابن عباس [كما عند أحمد في المسند بسند صحيح]. وفي كل ذلك كان المسلمون يبتغون وجه الله تعالى، ويتحملون في سبيله كل ما يقع عليهم من الإيذاء الحسي والمعنوي ومفارقة الأهل والعشيرة والموطن.

وفي هذا يقول خباب رضي الله عنه: «هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نلتمس وجه الله فوق أجرنا على الله...» [البخاري].

وقد أفاضت الأحاديث في فضل الهجرة والمهاجرين [خاصة في الصحيحين]، لأن الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بدولة تحميه، ولا يتصور وجود دولة بدون أرض تقوم عليها ورعية تسمع وتطيع لحاكمها.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بمكة: «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة...».

أول المهاجرين:

ذكر البخاري أن أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أول من هاجر هو أبو سلمة بن عبد الأسد، وجزم بذلك موسى بن عقبة [كما رواه الذهبي في السيرة]. وذكر ابن حجر [في الفتح] أنه يمكن الجمع بين حديث أهل المغازي والسير وحديث البخاري بحمل الأولوية على صفة خاصة، هي أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة، بخلاف مصعب، فكان عليه نية الإقامة بها، ليعلم من أسلم من أهلها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فلكل أولوية من جهة.

ما وقع للمسلمين في سبيل الهجرة:

ذكرت أم سلمة رضي الله عنها أن زوجها أبا سلمة عندما أراد الهجرة حملها مع ابنه سلمة، فرآه أهلها، فلحقوا به، وقالوا له: «هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبك هذه؟ علام نترك تسير بها في البلاد»، وانتزعوها منه، وغضب عند ذلك رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابنا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، فكانت أم سلمة - بعد هجرة زوجها وانتزاع ابنها منها - تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح، تبكي حتى تسمي، نحو سنة، فرق لها أحد ذويها، فقال لرهطه: ألا تخرجون من هذه المسكينة؟ فرقم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: إن شئت الحقي بزوجك، فاسترجعت ابنها من آل سلمة، وهاجرت إلى المدينة بصحبة عثمان بن أبي طلحة رضي الله عنه [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وعندما أراد صهيب الهجرة، قال له المشركون: «أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك»، فقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟» قالوا: «نعم»، قال: «فإني قد جعلت لكم مالي». فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «رَبِّحْ صَهيب..» [الحاكم، من حديث ابن إسحاق بسند صحيح] وفي رواية عنه أنه قال لهم عندما لحقوا به: «هل لكم أن أعطيكم أواق من ذهب وتخلوا سبيلي؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أسكفة الباب، فإن تحتها الأواقي. وخرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قباء، قبل أن يتحول منها، فلما رأيته قال: يا أبا يحيى، ربح البيع، ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] [الحاكم، وصحح إسناده]. [الأسكفة والأسكفة: عتبة الباب التي يوطأ عليها].

ورويت عدة روايات مرسلة في أن آية: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ قد نزلت فيه بمناسبة قصة هجرته. وعلق الطبري [في تفسيره] على هذه الروايات بعد أن أوردتها، فقال في تعليقه: (وأما ما روي من نزول الآية في أمر صهيب، فإن ذلك غير مستنكر، إذ كان غير مدفوع جواز نزول آية من عند الله على رسول الله ﷺ بسبب من الأسباب، والمعني بها كل من شمله ظاهرها). وقال ابن كثير [في تفسيره] - بعد أن أورد الروايات في هذا الشأن -: (وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله...)، ولا تعارض بين ما ذكر الطبري وهذا الذي ذكره ابن كثير، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الفقهاء.

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «أتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، [وقال البلاذري: (التناضب وأضاة بني غفار، موضع واحد. الأضاة: أرض تمسك الماء فيتكون فيها الطين. والتناضب: شجرات في هذه الأضاة، وهي لا زالت مشاهدة على جانب وادي سرف الشمالي إلى جوار قبر أم المؤمنين ميمونة، وقام بجانبها الغربي حي على بعد ثلاثة عشر كيلاً من مكة، نحو الشمال)، وانظر محمد شراب: المعالم الأثرية، مادة: التناضب.]. فوق سرف، وقلنا: أينما لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحبا. فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن». [وهذا الأثر أو الخبر الصحيح في قصة هجرة عمر رضي الله عنه يخالف الأثر الضعيف المشهور عند كثير من الناس من أن عمر رضي الله عنه أعلن هجرته، وقال للمشركين: من أراد أن تثكله أمه، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي الأثر، وأصل الأثر عند ابن الأثير: أسد الغابة (٤ / ٥٨)، وقد خرج الألباني في دفاع، ص ٤٣، وحكم عليه الضعف. ورواه كذلك ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق (١٨ / ٢٧٨)].

وعندما نزلت الآية: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ. مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٥]، كتبها عمر وأرسل [ابن إسحاق، بسند حسن] بها إلى هشام بن العاص بمكة، فوجد صعوبة في فهمها، فدعا الله أن يفهمه إياها، فألقى الله في قلبه أنها نزلت في أمثاله، فلحق برسول الله ﷺ بالمدينة. وعند ابن عبد البر [في الاستيعاب] أنه هاجر بعد الخندق.

وقد ثبت أنه ﷺ كان يقنت في صلاته بعد الركوع الأخير داعياً: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة...» الحديث، وفي رواية: «... اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين...» [البخاري]. وقد أنجا الله هؤلاء الثلاثة وغيرهم.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قدم مهاجراً إلى المدينة في عشرين راكباً من أصحاب النبي ﷺ. وقد سمى ابن إسحاق [في السيرة] جماعة منهم، وصدر الرواية بقوله: «ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه...»، وختمها بقوله: «... وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه حين قدما المدينة». قلت: فرواية ابن إسحاق تفسر رواية البخاري، وتدل على أن هؤلاء العشرين من أهل عمر، من غير عياش، لحقوا به ولم يرافقه ابتداءً، إذ أن من رافقه عياش. وبهذا يزول التعارض الظاهر بين الروایتين.

أما أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فعندما أراد أن يهاجر، استبقاه الرسول ﷺ ليصحبه في هجرته عندما يؤذن له بذلك. وظل يستعد لذلك اليوم، فاشترى راحلتين، وأخذ يعلفها لمدة أربعة أشهر [ابن هشام].

وقد روى الحاكم [وصححه، وقال الذهبي: (صحيح غريب)]، أن الرسول ﷺ قال لجبريل ﷺ: «من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق».

وتتابعت مواكب المؤمنين إلى دار الهجرة، دار الإسلام، ولم يبق أحد في دار الكفر، دار الحرب، إلا مستضعف مغلوب على أمره، أو صاحب عذر.

وكان آخر من بقي ممن هاجر عبد الله بن جحش رحمته الله. وكان قد كف بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة، فهاجر بأهله وماله سرًا، حتى قدم المدينة، وسطا أبو سفيان على داره بمكة فباعها. ومر بها بعد ذلك أبو جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والعباس بن عبد المطلب وحويطب بن عبد العزى، وفيها أهب [جلود غير مدبوغة] معطوبة، فذرفت عينا عتبة، وتمثل بيت من شعر، هو:

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماً سيدر كها النكباء والحبوب

وأقبل أبو جهل على العباس قائلاً: «هذا ما أدخلتم علينا» [الطبراني].

وروى هذه القصة ابن إسحاق [في السيرة] بنحو رواية الطبراني عند الهيثمي، ولكن في روايته أن الكفيف هو عبد بن جحش وكنيته (أبو أحمد)، وهو أخو عبد الله بن جحش، وأن زوجته هي الفرعة ابنة سفيان بن حرب، وأن أخاه عبد الله حمله معه عندما هاجر إلى المدينة مع أهله. ويبدو أن رواية ابن إسحاق هي الأقرب إلى الصواب، فقد ذكرها ابن حجر [في الإصابة]، ولم يذكر غيرها.

وفي هذه القصة وغيرها دليل على أن كثيرًا من الدور بمكة قد خلت من أصحابها.

• المبحث الثاني: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

• أولاً: تأمر قريش:

عندما علم المشركون بما تم بين الرسول ﷺ والأنصار في بيعة العقبة الثانية، وعندما رأوا المسلمين يهاجرون إلى المدينة زرافات ووحداناً، خشوا من تجمع المسلمين بالمدينة، وخروج الرسول ﷺ إليهم ليقودهم نحو تحقيق ما يريد، ولذا قرروا التخلص منه ﷺ. فعقد زعماءهم اجتماعاً خطيراً في دار الندوة، ليتشاوروا في أنجع الوسائل للتخلص من الرسول ﷺ.

وقد ذكر القرآن الكريم مضمون الآراء التي طرحت في ذلك الاجتماع. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] [أحمد: المسند، وحسن ابن كثير في البداية إسناده. [ليثبوك: ليسجنوك].

وجاءت الأحاديث والآثار مفصلة ما أجملته هذه الآية. فإضافة على ما جاء في رواية ابن عباس عند أحمد في سبب نزول الآية ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] هناك رواية أخرى عن ابن عباس عند ابن إسحاق [في السيرة] فيها تفصيل أكثر عن هذه المؤامرة [ورواه الطبري في تاريخه موصولاً من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

ففي هذه الرواية أنهم عندما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر رسول الله ﷺ جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ، مدعيًا أنه من أهل نجد، قال إنه سمع بالذي اجتمعوا له وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة فأذنوا له... [يذكر السهيلي في الروض (٢/ ٢٢٩) أنه ادعى ذلك، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد].

وعندما دارت المناقشة واقترح أحمد المؤتمرين أن يحبسوا الرسول ﷺ، قال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم...».

ثم اقترح أحدهم أن ينفوه، فدحض النجدي الاقتراح مبيناً أن حسن حديث الرسول ﷺ ومنطقه الذي يأسره القلوب سيجذب الناس إليه ويغلب بهم قريشاً. وأخيراً اقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً فيهم، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربون جميعاً بأسيافهم محمداً ضربة رجل واحد، ليتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا بالدية.

أيد النجدي هذا الاقتراح، ووافق عليه الجميع، وتفرقوا على ذلك ولم يبق إلا التنفيذ. [لم تحدد الرواية الساعة التي اجتمعوا فيها، هل كانت ليلاً أم نهاراً، ولم نقف على المدة الزمنية بين اتخاذ قرار القتل وبين الشروع في التنفيذ].

ثانياً: الإذن بالهجرة، والتخطيط لها ثم الشروع فيها:

بعد اتخاذ هذا القرار، أتى جبريل ﷺ رسول الله ﷺ وأخبره به، وأمره بعدم المبيت على فراشه هذه الليلة، والهجرة.

روى البخاري والطبري [في التاريخ، بسند حسن]، من حديث ابن إسحاق أنه عندما أذن للرسول ﷺ وأمر بالهجرة جاء متقنماً إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يعتد أن يزوره فيه، في نحر الظهر - أو النهار - وهو أشد ما يكون في حرارة النهار. وعندما أخبر أبو بكر بقدومه، علم أن قدومه في تلك الساعة وبتلك الكيفية، إنما هو لأمر خطير.

وعندما أذن له أبو بكر بالدخول، طلب أن يخرج من عنده حتى لا يعرف ما يقول له، وطمأنه أبو بكر بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ، ثم أخبر أبا بكر بأن

الله قد أذن له بالهجرة، وطلب أبو بكر أن يصحبه، فأكد له ما سبق أن ألمح له به من قبل. وأراد أبو بكر من الرسول ﷺ أن يأخذ إحدى الراحلتين، فوافق الرسول ﷺ، ولكن على أن يدفع ثمنها.

إن قول أبي بكر للرسول ﷺ بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ يريد بذلك عائشة وأسماء رضي الله عنهما، وهما مسلمتان، وعائشة رضي الله عنها قد عقد عليها الرسول ﷺ، فهي زوجته، فلا خوف منها. وقد صرح بهذا المعنى موسى بن عقبة في روايته، [عند ابن حجر في الفتح]، فقال: «أخرج من عندك، قال: لا عين عليك، إنما هما ابتاي»، وفي روايته عن ابن شهاب، قال: «قالت عائشة: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأسماء» - وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، ووصلها الطبري في تاريخه، بسند حسن]: «إنما هما ابتاي».

عند لقاء الرسول ﷺ بأبي بكر أخذوا في وضع خطة للهجرة تبطل كيد الكافرين. وكانت الخطة كالآتي، كما ذكرها البخاري وابن إسحاق:

١- أن يخرجوا ليلاً إلى غار ثور [البخاري]، في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، وفي هذا تمويه على الكفار، لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن الرسول ﷺ في الجهة الشمالية - جهة المدينة.

٢- أن يمكثوا في الغار لمدة ثلاثة أيام [المصدر نفسه، وغيره]، حتى يخف الطلب عنها.

٣- استأجروا دليلاً ماهراً عارفاً بمسلك طرق الصحراء، ليقودهما إلى المدينة، وهو عبد الله بن أرقم [و: أريقط تصحيف] الديلي، وكان مشركاً. واستكتماه الخبر. وانفقا معه على أن يلحق بهما في غار ثور بعد ثلاثة أيام. ودفعوا إليه بالراحلتين اللتين اشتراهما أبو بكر، وكان يعلفهما لهذا اليوم [البخاري].

٤- أعدت لهما أسماء زادًا ووضعته في جراب، وقطعت من نطاقها فربطت به علي فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، وفي رواية: ذات النطاقين [البخاري؛ ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد].

٥- وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس عنهما في النهار، فيأتيها به بالليل في الغار، ثم يرجع إلى مكة في السحر، ليصبح مع قريش. [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

٦- وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يُريحها عليهما في الغار إذا أمسى، ليطعما من ألبانها [البخاري]، ويذبحا منها للأكل، ويزيل بها آثار أقدام عبد الله ابن أبي بكر. [ابن إسحاق: السيرة].

٧- وأمر أسماء أن تأتيها من الطعام بما يصلحها في كل مساء [المصدر نفسه].

٨- وانطلق رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب، فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع والأمانات التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته. [ابن إسحاق في السير معلقًا، ووصله الطبري في تاريخه بسند حسن].

٩- وأمره أن ينام على فراشه ويتسجى ببرده الخضرمي الأخضر، الذي ينام فيه، وطمانه بأنه لن يصل إليه منهم شيء يكرهه، وذلك للتمويه [أحمد: المسند، بسند حسن؛ الحاكم؛ ابن إسحاق: السيرة، وهو حسن بشواهد].

١٠- وأمر أبو بكر عامر بن فهيرة أن يصحبها في هجرتها ليخدمها ويعينها في الطريق [البخاري].

لقد أمر الله الرسول ﷺ بهذه الهجرة بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه [البخاري]. وعندما أمره بالهجرة، أنزل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠] [أحمد: المسند، بسند

صحيح]. وكان ما أَرادَه من الله له في هذا الدعاء الموجز المعبر، والذي اختاره له الله ليَجعله مفتاحًا للطمأنينة.

أما في الجانب الآخر، فقد اختار زعماء قريش في ندوتهم أحد عشر زعيمًا يمثلون قبائل قريش المعادية للإسلام، فقضوا نهار يومهم ذلك في الإعداد لتنفيذ القرار الذي اتخذوه في دار الندوة.

ومع علم الرسول ﷺ بهذا القرار، لم ينس أن يقوم بعمل إيماني بطولي، يعد بمفهوما المادي اليوم (مغامرة)، بل قال عنه الذهبي (منكر)، أي غير منطقي. وهو أنه ذهب في تلك الليلة مع علي إلى الكعبة، وأمره أن يصعد على منكبه إلى فوق الكعبة، ليرمي صنم قريش الذي كان من نحاس وموتد بأوتاد من حديد. وعندما كان علي يعالج الصنم ليفكه، كان الرسول ﷺ يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا».

وتمكن علي من فكه ورميه وتكسيه، وانطلقا ولم يرهما أحد، ولم يرفع الصنم بعد ذلك [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي وأنكر متنه].

وهذا التصرف عندنا لمن المعجزات الدالة على عناية الله ﷻ برسوله ﷺ.

فلما كانت عَتَمَةٌ من الليل اجتمع القوم المنوط بهم تنفيذ الخطة على باب الرسول ﷺ يترقبون نومه، ليثبوا عليه، وكان معهم أبو جهل، ليطمئن على سير الخطة، ويشجعهم على التنفيذ. ومما كان يفعله بهذا الصدد: السخرية من محمد ﷺ والتشكيك في دعوته، فتراه يقول لهم: «إن محمدًا يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها» [ابن إسحاق: السيرة، وسنده مرسل حسن].

وبينما هم على هذه الحالة خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد سمع كلام أبي جهل، فأخذ حفنة من تراب، ثم قال: «أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه، لأن الله قد أخذ على أبصارهم، وهو يتلو الآيات من سورة (يس): ﴿يَسَّ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾... إلى قوله تعالى: ﴿فَاعْشَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩]. وتركهم على هذه الحالة، ثم خرج» [ابن إسحاق: السيرة].

قال السهيلي: (... فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم - أي الكفار - من التقحم عليه في الدار مع قصر الجدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسببة في العرب أن يتحدث عنا أننا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج..). وعبارة الشامي [في السبل]: (... أن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك مع قصر الجدار)، فذكر هنا أن المصدر هو أهل السير وليس أهل التفسير كما عند السهيلي.

وعندما خرج أبو بكر كان يحمل معه كل ماله، وقدره خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وفي طريقها إلى الغار، وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار، نظر إليها الرسول ﷺ بعاطفة مشحونة بالذكريات، تدل على حبه لها لما بها من رموز في حياته. فكيف لا يجبها وقد أحبها الله عز وجل وجعل بها بيته المقدس، وفيها أرسله الله إلى العالمين.

وقف ينظر إليها وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت» [الألباني: صحيح الترمذي].

وقال عنها في رواية أخرى: «ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

أما المتآمرون، فعندما رأهم أحد الناس أمام الباب، سألمهم عن سبب وجودهم أمامه، فأخبروه الخبر، فأعلمهم أن النبي ﷺ قد خرج فلم يصدقوه، لأنهم يرون عليًا نائمًا على فراش النبي ﷺ، فظنوه محمدًا ﷺ. ولم يكتشفوا الحقيقة إلا عندما قام علي من الفراش في الصباح [ابن إسحاق: السيرة، مرسلًا، يعتضد بغيره].

وعند هذا أخذوا في وضع الخطط للعثور عليه، ومن ذلك:

١ - إلقاء القبض فورًا على علي وضربه وسحبه إلى الكعبة، ثم اعتقاله بعضًا من الوقت، لحين التحقيق معه، للوصول إلى معلومات تفيدهم في العثور على الرسول ﷺ. ولكنهم فشلوا معه [المباركفوري والمنصورفوري ولم يحدد المصدر].

٢ - جاء نفر منهم إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه وفيهم أبو جهل، لعلهم يجدونه هناك ويفعلون به مثلما فعلوا بعلي. فخرجت إليه ابنته أسماء، فسألوها عن والدها، فقالت: إنها لا تدري أين هو، فغضب أبو جهل لهذا الجواب، فلطمها لكمة طرح منها قرطها [ابن إسحاق: السيرة].

٣ - وضعوا جميع الطرق النافذة من مكة تحت المراقبة الدقيقة.

٤ - قرروا منح جائزة مقدارها دية كل من الرسول ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه لمن يعثر عليهما حين أو ميتين [البخاري، ابن إسحاق: السيرة، وقال إن الجائزة مئة ناقة لمن يرد الرسول ﷺ إليهم].

٥ - استأجروا قصاص الآثار، ليتبعوا آثارهما حيثما حلا [ابن حجر: الفتح. وقال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٩٣): (ذكر أبو سعيد - في شرف المصطفى - أن المشركين كانوا استأجروا كُرُز ابن علقمة لما خرج النبي ﷺ مهاجرًا، ففقا أثره حتى انتهى إلى غار ثور، فرأى نسج العنكبوت على باب الغار، فقال: «إلى هنا انتهى أثره، ثم لا أدري أخذ يمينًا أو شمالًا أو صعد الجبل»].

الطريق إلى الغار:

روى البيهقي [في الدلائل] وغيره [منهم الحاكم، مرسلًا على شرط الشيخين، وابن حجر في الفتح، ابن هشام، وابن كثير في البداية، يتقوى بشواهد] أنها عندما انطلقا إلى الغار جعل أبو بكر يمشي ساعة بين يدي الرسول ﷺ وساعة خلفه، وعندما فطن له سأله عن السبب، قال يا رسول الله: «أذكر الطلّب، فأمشي خلفك، ثم أذكر الرّصد فأمشي بين يديك»، فقال له الرسول ﷺ: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن تكون دوني؟»، قال: «نعم، والذي بعثك بالحق ما كان لتكون من ملامة إلا أحببت أن تكون لي دونك».

أما الخبر الذي يروى عن عمر وفيه أن رسول الله ﷺ عندما خرج من مكة ليلاً ومعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه يحرسه، وعندما حفيت قدما الرسول صلى الله عليه وسلم حمله على كاهله إلى فم الغار، وسده أحجار الغار بقدمه، والحيات تلسعه، ودموعه تسيل على الرسول ﷺ... هذا الخبر قال عنه الذهبي [في السيرة]: (وهو منكر، سكت عنه البيهقي [في الدلائل]، وساقه من حديث يحيى بن أبي طالب، أخبرنا عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي.... وأفته من هذا الراسبي، فإنه ليس بثقة، مع كونه مجهولاً، ذكره الخطيب في تاريخه فغمزه).

وقال ابن كثير [في البداية] عن هذا الحديث بعد أن ساقه من رواية البيهقي المشار إليها: (وفي هذا السياق غرابة ونكارة).

وزاد الدكتور السعود [رسالة الهجرة] بعد قول ابن كثير هذا: (نعم، لأنه أيضاً في سنده فرات بن السائب - ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة - وقال أبو حاتم: منكر الحديث. وقال البخاري: تركوه، منكر الحديث؛ فهذا الخبر ضعيف منكر).



في الغار:

وعندما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر للرسول ﷺ: «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار»، فدخل فاستبرأه، ثم تذكر أنه لم يستبرئ الجحر الذي فيه، فقال: «مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ»، فدخل فاستبرأ، ثم قال: «انزل يا رسول الله»، فنزل الرسول ﷺ إلى الغار [البيهقي في الدلائل، مرسلاً؛ الحاكم، مرسلاً، صححه ووافقه الذهبي]. [والاستبراء: التأكد من سلامة المكان من الآفات الضارة].

ركبت قريش في كل وجه يطلبون النبي ﷺ. وبعثوا إلى أهل المياه يأمرهم، ويجعلون لهم الجعل العظيم، وأتوا على جبل ثور الذي فيه الغار، الذي فيه النبي ﷺ، وصعدوا فوقه، وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر وأقبل عليه وهم والخوف والحزن، وقال: «يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه». فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» [متفق عليه]. وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبْهُ فَلَاحِقٌ لَّهُ الْبَأْسُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] [متفق عليه].

وحكى الله نبيه في الغار من كل سوء. ومن أدلة حماية الله له ولصاحبه: ما روى أحمد [في المسند، بسند حسن] أن قريشاً اقتفوا أثرهما، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. وروى مثله عن الحسن البصري، وزاد فيه أن النبي ﷺ كان يصلي في تلك اللحظات وأبو بكر يرتقب [ابن كثير: البداية، حسن بشواهد].

ومرت أيام الغار بسلام، إلا ما ذكر من أن حجراً أصاب يد رسول الله ﷺ فقال:

«هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت»

وقد رويت بعض الأخبار الواهية فيما يتعلق بفترة وجود النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه بغار ثور، ومن أشهرها:

١ - ما رواه ابن سعد والبخاري [في كشف الأستار] من أن الله أمر شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجهه فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن فتیان قريش عندما وصلوا إلى قدر أربعين ذراعاً من فم الغار، نظر أولهما فرأى الحمامتين، فرجع فقال له أصحابه: «مالك لم تنظر في الغار؟» قال: «رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد»، فسمع النبي ﷺ قوله، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فسمت [أي بارك بالدعاء] عليهن وفرض جزاءهن وانحدرتا في حرم الله فأفرختا، وأن نسل حمام الحرم منهما.

٢ - روى بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال للرسول ﷺ: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه»، قال النبي ﷺ: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من هنا»، فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه [ابن كثير: البداية].

٣ - ما روي من أن أبا بكر قال لابنه عبد الله: «يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية [البخاري، كما في البداية]».

٤ - ما روي من أن رجلاً من المشركين جاء حتى استقبل رسول الله ﷺ بعورته يبول، فقال أبو بكر: «يا رسول الله: أليس الرجل يرانا؟» قال: «لو رآنا لم يستقبلنا بعورته». [الهيثمي: المجمع].

٥- ما روي أن أبا بكر عطش في الغار، فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب إلى صدر الغار فاشرب»، فانطلق أبو بكر إلى صدر الغار فشرب منه ماء أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأذكى رائحة من المسك، ثم عاد، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن أخرق نهرًا من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب». [السيوطي: الخصائص].

التوجه إلى المدينة:

ولما انقطع الطلب عنهما، جاءهما الدليل - ابن أرقد - بعد ثلاث ليال من بقائهما في الغار ومعه الراحلتان. وكان معهما عامر بن فهيرة. انطلق الأربعة إلى المدينة، عن طريق الساحل [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

بعد أن اتخذ الرسول ﷺ جميع الأسباب التي في مقدور البشر لينجو من الأعداء، كان مطمئنًا، ولسانه رطب بذكر الله، بالدعاء، بينما أبو بكر يكثُر الالتفات؛ حرصًا منه على سلامة الرسول ﷺ. [البخاري].

وعندما حانت ساعة المقييل في يومهم ذاك، وخلا الطريق، رفع الله لهم صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس، فنزلوا عندها، وسوى أبو بكر بيده مكانًا تحتها، وبسط عليها فروة، وطلب من الرسول ﷺ أن ينام، وخرج هو ليراقب المكان، فإذا هو براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل ما أرادوا. وتكلم معه أبو بكر ليعرف أمره، فعرف أنه رجل من أهل مكة. ورضي أن يجلب لهم من شاة له. وطلب منه أبو بكر أن ينظف الضرع قبل الحليب، وكره أن يوقظ الرسول ﷺ للشرب، فانتظره حتى استيقظ، فشرب حتى رضي أبو بكر، ثم أمر بالرحيل. [البخاري].

وكان الرسول ﷺ يردف أبو بكر معه على راحلته، وكان إذا سأل أحد أبا بكر في الطريق عن الرسول ﷺ، يقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه يعني الطريق، وإنما كان يعني سبيل الخير. [البخاري].

وروى البخاري ومسلم من حديث سُرَاقَةَ بن مالك المدلجي أنهم مروا في طريقهم بحي بني مُدَلِج، فرأهم رجل منهم، فجاء إلى مجلس من مجالس قومه وفيهم سراقَة بن مالك، فقال: «يا سراقَة، إني قد رأيت أنفًا أسودَة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه». قال سراقَة: «عرفت أنهم هم: فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، انطلقوا بأعيننا»، ثم لبث في المجلس ساعة، ثم قام فدخل داره، وأمر جاريته أن تخرج بفرسه إلى ما وراء الأكمة، ثم تجهز هو وتسلل إلى مكان فرسه، فركبها وانطلق بها. وعندما دنا من محمد ﷺ وأصحابه، عثرت به فرسه، فنزل عنها وأخرج الأزام، فاستقسم بها ليعرف: هل يضرهم أم لا؟ فخرج السهم الذي يكره، وهو ألا يضرهم، ولكنه عصى فركب فرسه، وعندما انطلق إلى أن وصل مكانًا يسمع منه دعاء الرسول ﷺ ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين. فنزل عنها ثم زجرها، فنهضت. وعندما انتزع الفرس يديه من الأرض، تبعها دخان كالإعصار، فعرف حين رأى ذلك أن رسول الله ﷺ قد منع منه، وأن أمره سيظهر، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره، فناداهم بالأمان، فوقفوا، فركب فرسه حتى جاءهم، ووقع في نفسه حين لقي ما لقي من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبر الرسول ﷺ أن قومه قد جعلوا فيه الدية، وأخبرهم أخبار ما يريد الناس، وعرض عليهم الزاد و المتاع، ولكنهم لم يطلبوا منه شيئًا سوى أن الرسول ﷺ طلب منه أن يخفي عنهم. وسأل سراقَة أن يكتب له كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب له ما أراد في رقعة من جلد، ثم مضوا.

روى البخاري بسنده إلى أبي بكر رضي الله عنه: «ارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقَة بن مالك بن جُعْشَم على فرس له، فقلت هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إن الله معنا».

وعندما رجع سراقَة إلى قومه، جعل يقول لهم: «قد استبرأت لكم الخبر. قد كُفِيتُم

ما ههنا». [البخاري].

وهكذا كان أول النهار جاهداً عليها وآخره حارساً لهما. [البخاري].

وكان كتاب الأمان مع سراقه إلى أن جاء به الرسول ﷺ، عندما فرغ من غزوتي حنين والطائف، فوفاه له رسول الله ﷺ، وقال: «يوم وفاء وبر». ويومها أسلم سراقه. [ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن].

روى ابن حجر [في الإصابة] وابن عبد البر [في الاستيعاب] وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لسراقه بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟» قال: فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقه بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقه رجلاً أذب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسها سراقه بن مالك بن جُعْشُم، أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته».

وذكر ابن إسحاق [من رواية ابن بكير كما ذكر البيهقي في الدلائل] أبياتاً من الشعر يحرص فيها أبو جهل قوم سراقه على سراقه، ورد عليه سراقه أيضاً بأبيات من الشعر [ابن كثير: البداية].

ثم مر رسول الله ﷺ وصحبه في مسيره ذلك بخيمتي أم مَعْبَد الحُرَاعِيَّة، فسألوها إن كان عندها طعام، فاعتذرت بالجذب، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة قرب الخيمة، فسألها عنها، فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: «هي أجهد من ذلك». فاستأذنها في حلبها، فأذنت له قائلة: «إن رأيت بها حلباً فاحلبها». فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء لها، فحلب فيه، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء وتركه لها، ثم ارتحلوا.

وعندما جاء زوجها أبو معبد ورأى اللبن عجب من ذلك، فأخبرته بالذي حدث من محمد ﷺ، فقال: «والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه»، وطلب منها أن تصفه له، فوصفته له، وعندما سمع وصفها، قال: «والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً»، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه ولا يرون القائل:

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد

[الحاكم، بسند حسن لغيره]. [ويأتي نص وصفها للنبي ﷺ في فصل الشائل].

ومرَّ الركب في طريقه بعدد يرعى غنماً، فطلبوا منه طعاماً، فاعتذر لهم بأن لا لبن في شياهم، إلا شاة - أو عناقاً - جف لبنها قريباً، فاستأذنه الرسول ﷺ، فمس ضرعها فحلبت، ورووا منها جميعاً، وعندما رأى الراعي ذلك أسلم، وطلب أن يتابع الرسول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ طلب منه أن يأتي عندما يسمع بظهوره، يعني بعد التمكين [الحاكم؛ ابن كثير: البداية].

وروى أحمد [المستند، بسند حسن]، عن ابن مسعود رضي الله عنه والطيالسي [منحة المعبود، بسند صحيح]، قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى علي رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقد فرا من المشركين، فقال: أو فقلاً: «عندك يا غلام لبن تسقيننا؟ قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما، فقال: «هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم، فأتيتها بها، فاعتقلها [أمسك بها] أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع، ودعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقياني، ثم قال للضرع: أقلص، فقلص. فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب، يعني القرآن، فقال: «إنك غلام مُعَلَّم»، فأخذت من فيه سبعين سورة، ما ينازعني فيها أحد». [ابن كثير: السيرة].

ويذكر ابن كثير أن هذه القصة وقعت قبل الهجرة بمدة طويلة .

ولقوا في طريقهم ركبا من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام، فيهم الزبير ابن العوام رضي الله عنه، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه بثياب بيض . [البخاري].

وعندما وصلوا العرج، احتاجوا للاستفسار عن الطريق، فدلهم أحد القاطنين على الطريق وبين لهم أن الطريق القريب عليه لصان من قبيلة أسلم، يقال لهما: (المهانان)، ولم يبال الرسول صلى الله عليه وسلم بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام، فأسلما، وسأهما (المكرمان)، وطلب منهما القدوم عليه في المدينة [عبد الله بن الإمام أحمد: الزوائد على المسند].

وروى البزار [كشف الأستار] وابن الأثير [أسد الغابة] يسنديهما إلى بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ الأَسْلَمِيِّ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل في مهاجره لقي ركبا، فقال: «يا أبا بكر: سل القوم فممن هم؟» قالوا: من أسلم، قال: «سلمت يا أبا بكر، سلهم من أي أسلم؟» قالوا: من بني سهم، قال: «ارم بسهمك يا أبا بكر».

وروي أنهم عندما وصلوا الجحفة وجدوا إبلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن هذه الإبل؟» فقالوا: «لرجل من أسلم»، فتفاءل صلى الله عليه وسلم: وقال لأبي بكر: «سلمت إن شاء الله»، وسأل الراعي عن اسمه، فقال: «مسعود»، فتفاءل صلى الله عليه وسلم وقال لأبي بكر: «سعدت إن شاء الله» [البداية والمعرفة لأبي نعيم].

وقيل: إن إحدى راحلتيهما تخلفت عنهما، فعندما جاء صاحب الإبل، وهو أوس ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن حُجْرِ الأَسْلَمِيِّ، فأعطاهما فحلا، وطلب من غلامه مسعود أن يصحبهم إلى المكان الذي يريدونه، فوصل معهم إلى قباء. [الاستيعاب، بسند حسن].

وروي أن أوسا بن عبد الله بن حجر الأَسْلَمِيِّ مر برسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر «بحدوات»، بين الجحفة وهرشى، وهما على جمل واحد متوجهين إلى المدينة، فحملها

على فحل إبله «ابن الرداء»، وبعث معها غلامه مسعود، وطلب منه أن يسلك بهما حيث يعلم من الطريق، ولا يفارقهما حتى يقضيا حاجتهما منه... فأوصلهما المدينة ثم عاد، وقد حملة وصية إلى سيده، وهي أن يسم إبله على أعناقها. [ابن هشام؛ ابن حجر: الإصابة؛ ابن عبد البر: الدرر، وحسنه].

ولقي ركب الهجرة عند الغميم بريدة بن الحصيب الأسلمي - زعيم قومه حينذاك - وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، أملاً في الفوز بالجائزة المعلنة من قبل قريش. وعندما التقى برسول الله ﷺ، وحدثه الرسول ﷺ في أمر الإسلام، أسلم وأسلم معه زهاء ثمانين بيتاً من قومه، وقيل: سبعين [أهل التراجم]. وبات بريدة مع الرسول ﷺ، وفي الصباح قال بريدة: «يا رسول الله: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فحمل عماته ثم شدها في رمح ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة. [الديار بكرى].

الوصول إلى المدينة:

روى البخاري وابن إسحاق [في السيرة؛ بسند حسن] والحاكم [بسند صحيح] وغيرهم أنه عندما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم. فلما كان يوم الإثنين، ١٢ / ٣ / ١هـ، خرجوا على عاداتهم، فلما حمي الحر رجعوا. وصعد رجل من اليهود على أطم من أطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر العرب، هذا جدكم الذي تنتظرون»، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وسمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحاً بقدومه وخرجوا للقاءه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة. وكان مَنْ لم ير الرسول ﷺ من قبل يحيي أبا بكر ظناً منهم أنه الرسول ﷺ. وعندما اشتد الحر، قام أبو بكر فأظلم النبي بردائه، فعرفوا الرسول ﷺ فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة

تغشاه والوحي ينزل عليه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]، وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء محمد، جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد. [الحاكم، بسند صحيح]، وأنشد المستقبلون:

طلّع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع

[لقد وقف بعض العلماء عند هذا النشيد، وناقشوه من حيث السند والمتن، لوجود إشكال في روايته؛ إذ وردت فيه كلمة (ثنيات الوداع) التي اشتهر أنها من جهة الشام، وليس من جهة مكة. ويرى عرجون صحة نسبة النشيد إلى حادثة قدومه إلى داخل المدينة، دار أبي أيوب، ويوفق بين الروايات ويناقش هذا، ولا يستبعد تكرار إنشاد النشيد في زمن عودته من تبوك، فليراجع عرجون (٢/ ٦٠٢ - ٦١١). ونحن نميل مع عرجون إلى تعدد إنشاء النشيد وإلى أن ثنيات الوداع ليست من جهة الشام فقط].

ثم سار حتى نزل قباء في بني عمرو بن عوف - من الأوس - على كُثُوم بن الهذم، لمدة أربع عشرة ليلة، فيها أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد الهجرة.

وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار أخواله، فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم ابن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل [ابن سعد، بسند صحيح؛ ابن إسحاق: السيرة]. وكانت أول جمعة للنبي ﷺ داخل المدينة. [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن]. وعرف هذا المسجد بـ: (مسجد الجمعة).

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الجمعة، في جو مشحون بالفرح والبهجة والسرور، وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته قائلين: هلم إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والسَّلَامِ والمنعَةِ، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة فلم تزل تسير به

حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت فلم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها وذلك في بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري. وبادر أبو أيوب إلى الرحل فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»، وأخذ أسعد بن زرارة الراحلة.

[ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن؛ البيهقي: الدلائل، وفيه الحديث: (المرء مع رحله)].

نزل رسول الله ﷺ في القسم الأسفل من دار أبي أيوب، وأبو أيوب في القسم العلوي. فانتبه أبو أيوب ذات ليلة، فقال: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!» فتنحوا إلى جانب. وفي الصباح طلب من الرسول ﷺ الانتقال إلى القسم العلوي، فقال النبي ﷺ: «السفل أرفق» ولكن أبا أيوب قال: «لا أعلو سقيفة أنت تحتها». فتحول الرسول ﷺ إلى القسم العلوي، ونزل أبو أيوب إلى القسم السفلي.

وكان أبو أيوب يصنع للنبي ﷺ طعاماً. فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتبع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم. فلما رد إليه سأل موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل. ففزع وصعد إليه، فقال: «أحرام هو؟» فقال النبي ﷺ: «لا، ولكنني أكرهه»، قال: «فإني أكره ما تكره...»؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كانت تأتيه الملائكة. [مسلم].

وعندما انكسرت جرّة ماء أبي أيوب ذات يوم، عندما كان بالعلوي، نشف هو وأم أيوب ماءها بقطيفتها الوحيدة التي يلتحفان بها؛ خوفاً من أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وروي أن أبا أيوب سأل الرسول ﷺ أن ينتقل إلى القسم العلوي من داره، بسبب هذه الحادثة، فاستجاب الرسول ﷺ لطلبه [ابن حجر: الإصابة]. وروي مسلم وأحمد

[أحمد: المسند] أن سبب الانتقال هو كراهة أبي أيوب وأم أيوب أن يمشيا فوق رأس رسول الله ﷺ. كما سبق ذكره. وما في الصحيح أصح. وكانت مدة إقامته ﷺ في دار أبي أيوب شهراً واحداً [ابن حجر: التهذيب؛ ابن سعد] على الأرجح.

وما كانت تمر ليلة إلا على باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة من الصحابة الأنصار، يتناوبون في حمل طعامهم إلى رسول الله ﷺ، حتى تحول من منزل أبي أيوب إلى داره. [ابن سعد].

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على حبيب - ويقال خبيب - بن يساف، بالسنح، ويقال: نزل على خارجة بن زيد. [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

الأحكام والدروس المستفادة من أحداث الهجرة إلى المدينة:

١ - أوضح الرسول ﷺ في خطبة له أيام فتح مكة: أن لا هجرة بعد فتح مكة ولكن جهاد ونية. [متفق عليه]، فلم تعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجباً، وإن بقي حكمها من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام واجباً إلى يوم القيامة. [ابن حجر: الفتح]. فقد شرعت الهجرة إلى المدينة ليعبد المسلمون ربهم بأمان ويقيموا كيان الدولة الإسلامية ويحموه، ثم يوسعوا رقعة هذه الدولة بالدعوة إلى الله؛ والهجرة بعد فتح مكة لم تعد ضرورة؛ لأن كيان الإسلام قد قوي وصارت للمسلمين دولة، فأصبح وجود المسلمين في ديارهم أجدى لإقامة شعائر الإسلام ونشر تعاليمه في سائر الأرجاء، أما الجهاد فهاض إلى يوم القيامة. ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة. [البخاري]. وقد بين ابن عمر رضي الله عنهما ذلك بقوله: «انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»، أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم وخشي أن يفتن في دينه. [ابن حجر: الفتح].

ويستدل في ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَنُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ [النساء: ٩٧-٩٨] [الفتح].

وهكذا اقتضت ظروف قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وحاجتها إلى جنود يحمونها؛ أن تكون الهجرة إلى المدينة واجبة على كل مسلم قادر. قال الخطابي: (كانت الهجرة إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين).

وقد أكد الله تعالى هذا الأمر في عدة آيات حتى قطع المواالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالِكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] [الطبري: التفسير]، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل، سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب [ابن حجر: الفتح].

وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه إذا كان أي بلد من بلاد الكفر أعون للمسلم على ممارسة دينه والدعوة إليه، فهو أجدر بالإقامة فيه إذا تيسر سبيل ذلك للمسلم، ولا تجب عليه الهجرة، لأن هذه البلاد أصبحت مثل دار الإسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام. [ابن حجر: الفتح].

٢- استخدم الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي بها العقل البشري في مثل هذا العمل. وليس ذلك بسبب خوف على نفسه، أو شك في إمكان وقوعه في قبضة المشركين؛ وإنما هو تشريع للأمة ليتأسى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأن سنة الله أن السبب إذا وجد، وجد معه المسبب ما لم يبطل الله ذلك كما فعل في جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم ﷺ، فعندها تكون هذه معجزة للنبي،

وإن كانت لغيره فهي كرامة للصالحين، واستدراج للطالحين من الناس؛ والدليل على ذلك أنه بعدما استنفذ الأسباب المادية كلها كان مطمئناً، وصاحبه أبو بكر كان خائفاً، وكان من مقتضى اعتماده على تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع؛ لقد كان كل ما فعله من الاحتياطات إذًا، وظيفية تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله ﷺ، معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلا على الله ﷻ، وأن ذلك لا ينافي اتخاذ الأسباب والتدبير للوصول إلى الأهداف [البوطي: السيرة].

٣- إن قبول علي بن أبي طالب النوم على فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة منقبة عظيمة لعلي، دلت على إيمانه وشجاعته، وهذا يدل على جواز خدع العدو والتمويه عليه عملاً بأسباب النجاة.

٤- إن العمل الذي قام به الشباب في تنفيذ خطة الرسول ﷺ للهجرة، مثل دور علي وأبناء أبي بكر، يعد دوراً نموذجياً رائداً لشباب الإسلام.

٥- إن المعجزات التي أجراها الله تعالى لحماية نبيه ﷺ في هذه الرحلة، جاءت كما جاء غيرها، كضرب من ضروب التكريم للرسول ﷺ وإشارة إلى أن الله ﷻ ناصره وممكن لدينه في أرضه، طال الزمن أم قصر.

٦- إن العمل الذي قام به أبو بكر رضي الله عنه في الهجرة يعد منقبة كبرى له، ويكفيه تكريماً أن يذكر في القرآن بمناسبة هذا الدور، ﴿ثَانِفًا أَتَيْنَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

٧- يفهم من إرداف الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه على راحلته، حين دخولها المدينة، على الرغم من وجود راحلة أخرى، أن الرسول ﷺ آثر عامر بن فهيرة وعبد الله ابن أرقد بركوب الراحلة الثانية، وذلك من كمال تواضعه.

٨- إذا تأملنا في قصة تبرك أبي أيوب الأنصاري وزوجه بآثار الرسول ﷺ، وإقرار الرسول ﷺ لذلك، تبين لنا مشروعية التماس البركة من آثار النبي ﷺ، إن وُجِدَتْ، [الألباني: التوسل] وفي وجودها شك كبير جدًا.

٩- دل تصرف أبي أيوب وأم أيوب على مدى محبة الصحابة ﷺ للرسول ﷺ وهي صورة متكررة في كل مقطع من مقاطع هذه السيرة.

١٠- إن في إعراض الرسول ﷺ عن أكل الثوم النيء دليل على أن ذلك من خصوصياته ﷺ، وقد أحله للمسلمين بشرط ألا يأكلوه ثم يرتادوا المساجد قبل أن تزول رائحته، وقد وجه الرسول ﷺ إلى من يريد أكل الثوم فليمته طبخًا. [مسلم وغيره].

فائدة:

روى ابن أبي شيبة [المغازي، بسند صحيح] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أنزل عليه وهو ابن أربعين سنة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين. هذا هو المشهور، وروى كذلك آثارًا أخرى صحيحة تخالف في بعض أجزاءها هذه الرواية.

